

٤- تركيا

الأستاذ أبو الفتوح عطفية

طاغية

وعدت القراء في نهاية المقال السابق أن أحدثهم عن الحركة المجيدة التي أخذت تركيا من الحرج الذي كانت فيه ١٩٢٠ ومن الأزمات والنكبات التي حلت بها في ذلك التاريخ، ولكنني أرى لزاما على أن أشير إلى العوامل الداخلية التي كانت سبب تلك الكوارث بعد أن تحدثت عن أسبابها الخارجية، وبذلك نضع أمام القراء صورة انحلال تركيا الداخلية والخارجية ثم بعد ذلك نتحدث عن الحركة الكمالية أو حركة الإنقاذ

كانت أوروبا تتحدث جميعا منذ القرن الثامن عشر عن قرب انحلال تركيا، وأكثر من هذا قامت بعض الدول بمناوشات بقصد تقسيم تركيا. والواقع أن ضعف تركيا كان يرجع إلى عوامل متعددة منها ما هو داخلي ومنها ما هو خارجي ولعل من أهم العوامل الداخلية كثرة الشعوب والأجناس التي كانت تركيا تحكمها، فقد كانت تحكم إمبراطورية واسعة يسكنها البلغار واليونانيون والصرب والجنوبيون والرومانيون والسوريون والعراقيون والمصريون والعرب والمغاربة وغيرهم، وكانت هذه الشعوب تختلف في الجنس واللغة والدين والمادات والتقاليد، وتختلف أيضا عن الدولة الحاكمة في تلك النواحي الأمر وذلك ماجعل الإمبراطورية العثمانية معرضة للانحلال بمجرد ضعفها

وكان أهم أسباب ضعف تركيا فساد الحكم التركي في تركيا ذاتها. وفي أملاكها، فقد كان الخليفة أو السلطان رأس الدولة موطن الفساد والانحلال وسبب سوء والضعف

صحيح أن بعض المحاولات للإصلاح قد قامت فعلا ولكنها فشلت.. أولا لأن الدول كانت حريصة على أن تظل تركيا ضعيفة منعلة تستطيع الدول أن تقطع لنفسها من أملاكها ماتشاء حين تخمين الظروف أو توافي المناسبات. وثانيا لأن العقيدة الرجعية كانت تسيطر على الخلفاء الأتراك وحاشيتهم ووزرائهم مما جعل هذه الحركات الإصلاحية عديمة القيمة

وتناعت الأمور إلى السلطان عبد الحميد ١٨٧٦ الذي تولى العرش على أكتاف الأحرار من أبناء حزب تركيا الفتاة الذي كان يتزعمه مدحت (باشا) وقد كانت الحياة النيابية أهم أمان مدحت الذي كان يرى أن الحياة الدستورية الصحيحة هي السبيل الوحيد لإنقاذ تركيا

وقد كانت تركيا إذ ذاك في موقف لا تحسد عليه، فالشعوب البلغانية نازة والدول تتدخل لإنهاء الموقف فوجد السلطان عبد الحميد أن خير وسيلة للخروج من هذا المأزق هي إصدار الدستور فهو كفيل بإسكات الأحرار من الأتراك والثوار من دعاياهم؛ بل أكثر من هذا إنه سيتقضى على محاولات الدول للتدخل في شؤون تركيا

أصدر عبد الحميد الدستور ١٨٧٧ ولكنه كان غير مؤمن به ولذلك لم يلبث طويلا أن قضى عليه خلل البرلمان ونفى مدحت « ذلك انجم الذي احتل الناس وساقهم في طريق الفوضى » وشتت أنصاره وأتباعه وأصبحت تركيا سجنًا للأحرار من الرجال وأقام عبد الحميد من نفسه طاغية جبارا يتحكم في الرقاب وينشر الظلم والذل والاستعباد وملأ الحكومة برجال لا أخلاق لهم ولا مبدأ ولا عهد ولا دين، غلبهم الوحيدة الإثراء وجمع المال بأي طريق « هذا هو العهد الذي كان فيه المال والثروة غرض الحياة الأعلى، وما كان ذلك الغرض يستدعي سوى أن يتبرأ الإنسان من قومه ويتجرد من شخصيته ويضحي ابنه وأمه وأخته وأصحابه وذمته وكل المواطف الوطنية والمبادئ البشرية » وحتى لا تتسرب بذور الحرية إلى تركيا منع عبد الحميد الأتراك من السفر إلى الخارج وشدد الرقابة على الصحف والكتب ومنع الصحف التي تصدر في أوروبا من دخول تركيا؛ وانتشرت الجواسيس وراقبوا الناس وانتكسوا حرمة المنازل وعاش الأتراك تحت نير هذا العسف ثلاثين عاما

ومنع الأئمة والخطباء في المساجد من ذكر الأحداث أو الآيات التي تحط من قدر الطغاة والتي تذكر الظالمين بسوء العاقبة، وكان حديث الجمعة الثابت « إن الله جميل يحب الجمال » أما الأحاديث التي تشير إلى العدل أو تذكر الوالي بمسؤوليته نحو رعيته فكانت ممنوعة منعا باتا

وكشأن اللوك الطغاة الفاسدين كان قصر عبد الحميد يجمع

ونيازى على رأس قواتها إلى سالونيك واستقبلتهم هناك جوع حاشدة متحمسة من اليونانيين والأتراك واطمأن الجميع إلى أن عهد الإرهاب قد زال !

وتدفقت جوع من المنفيين السياسيين الأتراك في تركيا وانضم أكثرهم إلى الضباط الشبان واشتركوا في جمعية الاتحاد والترقي ثم هرعوا إلى القسطنطينية بنشدون الظفر بنصيب من الثنية وبنامرون للاستئثار بالحكم !

لكن الدول لم تدع الفرصة : فأنما أعلنت ضم البوسنة والهرسك إليها نهائيا، وبلغاريا أعلنت استقلالها، وقامت الثورات في ألبانيا وفي بلاد العرب

ونشط أعوان السلطان والرجيون فرشوا بالمال جنود القسطنطينية قتلوا ضباطهم وأعلنوا ولاءهم لدين الإسلام ! وللسلطان ظل الله في أرضه وخليفة الرسول !

لكن الاتحاديين تقدموا من سالونيك وقضوا على تلك الحركة الرجعية وعزلوا عبد الحميد وسجنوه في سالونيك وتولى السلطان محمد الخامس

لكن نهضة تركيا لم تكن ترضى الدول ولذلك عمدت إلى تحقيق أطماعها فيها، فإيطاليا استولت على طرابلس ١٩١١، وفي البلقان قامت الدول البلقانية ضد تركيا واستطاعت جيوشها أن تنزل بجيوش تركيا الهزائم واضطرت إلى طلب الصلح

لكن شعوب البلقان المتحالفة ضد تركيا وهى بلغاريا والصرب والجبل الأسود واليونان لم تلبث أن انقسمت على نفسها وقامت الحرب بينها؛ فانهز الأتراك الفرصة واسترجعوا بعض أراضيهم في شرق ووسط تراقيا بقيادة أنور (بك) فخلص هذا النصر شرف العثمانيين

ولم يمض عام حتى اشتعلت نار الحرب العظمى ووقفت تركيا بجانب ألمانيا . وكانت نتيجة الحرب وبالا على تركيا فقدت أملاكها واحتل الإنجليز والفرنسيون والإيطاليون عاصمتها، وأشرفوا على مراقبتها ونزل اليونانيون بأرض الأناضول يطعمون أن تكون تلك البقعة الخمسية حول أزمير ملكا لهم

وسط تلك الأزمة الخائقة جاء مصطفى كمال لإيقاد تركيا

أمر الفتنوع طيفة

بالنساء والحواري . ويذكر المؤرخون الأجانب أن عبد الحميد حين ولي العرش وعد بأن يقضى على تقاليد الخلفاء الذميمة ومنها الإكثار من النساء في قصورهم كما وعد بأنه سيقصر على زوجة واحدة ولكن لم يمض عام واحد حتى كان عدد الحريم بالقصر السلطاني قد بلغ تسعمائة !

ومدحت (باشا) زعيم الأحرار نبي إلى الطائف حيث قضى بقية حياته على الفجل والماء ! إلى أن مات شهيدا في سبيل الحرية وكان الطاغية ضعيفا أمام الأجانب وللوقوف في وجههم عمد إلى إذكاء روح الجامعة الإسلامية وكان يهدد الأجانب بمحاولة إثارة المسلمين ضدهم وكان التهديد سلاحه الأول والتسليم سلاحه الأخير

ثورة يوليو ١٩٠٨

حين عطل عبد الحميد الدستور ١٨٧٨ ونكل بالأحرار هاجر كثيرون منهم إلى الخارج . وفي ١٨٩١ اجتمعوا في جنيف وأسسوا جمعية الاتحاد والترقي وظل هؤلاء الأحرار يعملون على قلب حكومة الطاغية التي أزلت بالبلاد المصائب وذاتت على يد الأجانب الذل والهوان

وفي ديسمبر ١٩٠٧ قرر هؤلاء الأحرار بدء العمل وتقرر أن تكون مقدونيا مركز الحركة

وعمد أعضاء الجمعية إلى نشر دعوتهم في صفوف الجيش فانضم أغلب رجاله إليهم وحدد يوم ٣ يولية ١٩٠٨ لإعلان الثورة على يد أركان الحركة أمثال نيازى (بك) وأنور (بك) وصلاح (بك) أولئك القديسون الذين حملوا أرواحهم في أيديهم وخرجوا إلى البلاد لهدم كيان الظلم ومحو آثاره

ووصلت أنباء الحركة إلى السلطان فارتعج وأمر أحد رجاله شريف (باشا) بسحق الثورة ولكن الثوار قضوا على ذلك المحاولة . واستنجد السلطان بقوات من الأناضول ولكنها سحقته أيضا وبدأت البلاد تسقط تباعا في يد الثائرين . وأندرت الثوار السلطان بوجوب إعلان الدستور فوراً وأسقط في يد الثعلب الماكر هبد الحميد واضطر إلى إعلان الدستور وتأليف حكومة دستورية ، ولام مستشاريه على أخطاء الماضي ومظالمة ثم ألغى الجاسوسية وأعلن ترحيبه باستقبال زعماء الثوار فساد أنور